DOI : 10.12816/0007850

دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 40، العدد 3، 2013

جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش

رائد وليد جرادات*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند ثنائية الحياة والموت في شعر محمود درويش، بوصفها قضية محورية تتردد في أعمالة الشعرية بصورة لافتة.

وقد تحدثت الدراسة عن أبرز أنماط الموت وصوره في خطاب درويش الشعري: كموت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة، وموت المحبين العاشقين، وموت الشهداء والأبطال. وتبيّن أنّ رؤيته للموت رؤية عميقة، ونظرة بعيدة تشكّل الأشياء حسب انعكاساتها في عقله وقلبه، فيصير الموت بالنسبة له معايشة الحياة؛ لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الشهادة، الذي أصبح فعلاً يومياً ألفه الفلسطينيون وتعوّدوا عليه، فمن الموت تولد الحياة، ويتحقق النصر، ويصبح غياب الشهداء موتين: موت للموت وموت للحياة. فهو يمجدّ الموت باعتباره عرساً للشهداء، وسبيلاً لاستعادة الأرض، وطرد العدو، وتحقيق الذات الفلسطينية على أرضها.

الكلمـات الدالـة: الحياة، الموت، محمود درويش.

المقدمـة

لقد حظي شعر درويش باهتمام عدد كبير من الباحثين والدارسين منذ بداياته وحتى يومنا هذا، إلاّ أنّ هناك مناطق جمالية غائرة في طبقات عميقة فيه تحتاج مزيداً من الكشف والبحث، فشعره منجم غزير، وكنز وفير في شكله ومضمونه؛ الأمر الذي يدفع الباحثين إلى التعمّق والقراءة الجادة .

وتناول درويش في شعره موضوعات شتى لعلّ من أبرزها قضية "الحياة والموت"؛ إذ تكررت في أعماله الشعرية بصورة لافتة، فأثارت اهتمام الدارسين لما قدّمه درويش فيها من رؤى جديدة، وأفكار عميقة تجسّد نظرته لهذه الثنائية الكبرى، التي تتعلق بالوجود الإنساني بالمعنى العام، والمصير الفلسطيني بالمعنى الخاص.

تحاول هذه الدراسة الوقوف عند هذه الجدلية الكبرى وتجليتها في شعره، وبيان فلسفة الشاعر فيها وموقفه من الموت، الذي تتعدد أشكاله وصوره في نصوصه الشعرية: كموت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة، وموت المحبين العاشقين، وموت الشهداء والأبطال وغيرها من تلك الصور.

جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش

جدلية الحياة والموت من أبرز المضامين الشعرية، التي تكررت في شعر درويش, وأثارت اهتمام عدد كبير من الدراسين؛ وذلك لما أحدثه فيها من رؤى جديدة، وأفكار عميقة لهذه الجدلية الكبرى، فالحياة تولد من رحم الموت كما يقول، وأيّ موت هذا الذي يُولّد الحياة، إنّها الفلسفة الدرويشية الخاصة، التي تنظر إلى الأشياء بمنظار رؤيويّ جديد، فرضته طبيعة الحياة، والظروف المحيطة، التي عايشها الشاعر وعاش في خضمّها.

وإنّ القارئ لأعمال درويش الشعرية يلحظ بوضوح أنّ لفظة "الموت" وما يتعلق بها من مفردات قد انتشرت في أشعاره انتشاراً واسعاً، وشغلت حيزاً كبيراً في عنوانات كثير من قصائده ونصوصه. وقد رصد عبد السلام المساوي في كتابه الموسوم بـ "جماليات الموت في شعر محمود درويش" هذه اللفظة واستخدامها عنواناً في بعض قصائد درويش الشعرية، وخلص إلى جملة من الافتراضيات التي تحقق منها وهي(1):

1- الإيمان العميق بأنّ الإقدام على الموت استشهاداً وفداءً هو الخطوة العملية التي بإمكانها أن تعيد الحق المسلوب.

2- الانصراف عن التأمل الفلسفي في الموت بكونه مصيراً ميتافيزيقياً؛ وذلك لأنّ اللحظة التاريخية كانت أقوى من الانشغال بالفكر التأملي بقضية الموت.

3- استخدام الشعر كوسيلة لتثوير الشعب وتحميسهم على بذل النفس من أجل استعادة الأرض.

وقد تجلى الموت عند درويش في ثلاثة أنماط:

1- موت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الطفيلة التقنية، الطفيلة، الأردن.
تاريخ استلام البحث 2012/12/28، وتاريخ قبوله 2013/4/7.

©2013 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.
جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

2- الموت المحبين العاشقين.

3- موت الأبطال والشهداء.

فمن أمثلة النمط الأول لدى درويش قصيدته في رثاء أبيه وعنوانها "مرثية"(2):

لملمتُ جرحكَ يا أبي
برموشِ أشعاري
فبكت عيونُ الناسِ
من حزني... ومن ناري
وغمستُ خبزي في التراب...
وما التمستُ شهامةَ الجارِ!

فهو يتحدث عن موت والده، ويصوّر حالته النفسية بعد رحيله، وما ألمَّ به من حزن شديد، ومصاب جلل، جعله يبكي بكاء شديداً عليه، وقد سخّر موهبته الشعرية في تجسيد ذلك المصاب، وإبراز الحالة الوجدانية، مؤكّداً أنّه لا يملك سوى البكاء والدموع والشعر للتعبير عن هول الفقد، وعظيم الكارثة. وقد جعل الشاعر الطبيعة تشاركه هذا الإحساس العظيم بالموت؛ فإذا التربة تصاب بالصمم والعُري والجفاف، فلا غيم، ولا أمطار، ولا حياة فيها؛ لأنّها سمعت تأوهات الشاعر وآلامه(3):

فترفرفت لما نذرت لها
جرحاً بكى برموش أشعاري!

وهذه الصورة التشخصية تبرز ألم الشاعر، وتصوّره خير تصوير، فجرح الشاعر يصير إنساناً حيّاً يبكي ويئنّ، وتستجيب التربة لهذا الشعور فتحسّ بإحساسه، فإذا عيونها تترقرق ويفيض دمعها، وتصاب بالمرض والجدب. لقد شرب درويش "أقداح البؤس"(4) بموت والده ولم يجد إلا الرثاء مخرجاً لهذه الحالة الوجدانية الصعبة.

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان: "الموت في الغابة"(5):

لا شيء يستدعي غناء أسى
فالموتُ أكبر من مزاميري

لقد تعوَّد درويش أن يرثي أحبته وأصدقاءه بقصائده، التي تعبِّر عن عواطفه وأشجانه، وتصوّر أحاسيسه وانفعالاته كأنّها أغنيات حرّى مبكية، ونفثات مكلوم مشجية، ولكنّ إيقاع الموت أكبر، وأشد تأثراً وإيلاماً في نفسه؛ لأنّه أصبح يتكرر كل يوم في غابة الاستعمار المفترس، الذي يسطو على كل الأشياء فيغيّرها، ويبدّل معالمها؛ فيتحول الأمن إلى خوف، والسّلام إلى حرب، والضياء إلى ظلام، والحياة إلى موت(6):

جرحٌ صغير... مات صاحبُهُ
فطواه ليلٌ كالأساطير
تاريخه ... أنفاسُ مزرعةٍ
تسطو عليها كفّ شريرِ
كانت، فلا نقرات قُبَّرةٍ
بقيت، ولا صيحاتُ ناطورِ
وغصونُ زيتونٍ مقدسةٌ
ذبلت عليها قطرةُ النورِ!

ومع هذا ماذا يفعل المكلوم غير البكاء، واستحضار الراحل، والتحسر على غيابه؟ يقول(7):

أنا أدري أنّ دمعَ العين خذلان ... وملحُ
أنا أدري،
وبكاء اللحن ما زال يلحٌّ
لا ترُشّي من مناديلك عطراً
لست أصحو ... لست أصحو
ووعي قلبي ... يبكي

ويقول في قصيدة بعنوان "مطر"(8):

يا جدي المرحوم! أهلاً بالمطر
يروي ثراك. فلا يزال السنديان
من يومها يدمي الحجر !
.....
يا نوح !
لا ترحل بنا
إنّ المماتَ هنا سلامة
إنا جذورٌ لا تعيش بغير أرض ...
ولتكُن أرضي قيامه !

إنّ درويشاً في هذا النص يستحضر عادة الشعراء القدماء في الوقوف على قبور أحبتهم وأصدقائهم، والبكاء على أصحابها الراحلين المودعين بالثرى كأنّهم أفلاك وأقمار ونجوم، والدعاء لهم بالسقيا والمطر؛ ليبثوا الحياة فيها, وها هو درويش يقف على قبر جدّه، ويدعو له بالمطر، فهو يبثّ الحياة والخصوبة في المكان؛ كي يبقى وطناً للأحرار، الذين يتجذّرون في أرضه كأشجار السنديان الباسقة القوية، ويدافعون عنه بالأرواح والمهج، ويواجهون الأعاصير والأرياح العابثة ويتحدونها بكل قوة. نعم إنّ الموت على الأرض وفيها كما يقول درويش "سلامة". وهذا الفهم العميق لجمال الموت في الأرض وعلى الأرض هو ما يميز أشعار درويش الأولى. إنّه يدعو دائماً للتجذّر في الأرض والدفاع عنها بكل الأسلحة المتاحة؛ كي نبني بذلك الوطن حتى لو تحوّلت الأرض إلى "قيامة" من شدة المواجهة مع العدو وهول الموقف. إنّه يرفض بشدة الموت خارج الوطن.

ولا يخفى أنّ الشاعر هنا يتناص مع القرآن الكريم وتحديداً

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

قصة نوح - عليه السلام -، ويستوحي قصة الطوفان بطريقة فنية للتعبير عن فكرته هذه، فإذا كان نوح - عليه السلام - كما ورد في النص القرآني قد دعا ممن اتّبعه من المؤمنين إلى الركوب بالسفينة والخروج من الأرض للنجاة من القوم الظالمين؛ فإنّ الشاعر كما ورد في النص الشعري يدعو أبناء أمته بعدم الخروج من المكان والتجذّر فيه ومواجهة القوم الظالمين. فهو "يقلب البعد الديني للقصة القرآنية، دون أن تجسّد هذه الممارسة الفنية تمرّداً على القيمة الروحية المتجلّية في محبّة الأرض إلى درجة العبادة. فهو لا يأخذ من المعطى التراثي تفاصيل حدثه الدرامي، وإنّما يكتفي منه بقيمته الثورية التي تعكس في الظاهر عصياناً، وتدّخر في العمق عبادة لأرض الوطن"(9).

والنمط الثاني من أنماط الموت هو الموت الرومانسي كما أسماه شاكر النابلسي وهو موت المحب من أجل حبيبته(10). يقول درويش في قصيدته بعنوان "العصافير تموت في الجليل"(11):

يا ريتا ! وهبناكِ أنا والموت
سرَّ الفرحِ الذابلِ في بابِ الجمالْ
وتَحددنا أنا والموت
في جبهتك الأولى
وفي شباك دارك
وأنا والموت وجهان
لماذا تهربين الآن من وجهي
لماذا تهربين؟

فهو ينادي محبوبته ريتا بأعلى صوته وقد توّحد مع الموت الموت الرومانسي، الذي يتمناه العاشق مع معشوقته عندما يكون اللقاء في الحياة أمراً مستحيلاً، إنّها لغة الشاعر العذري الذي كان يتمنى الموت؛ لكي يجتمع بمحبوبته يوم المحشر. لقد توحّد الشاعر مع الموت، وأصبحا وجهين لعملة واحدة من أجل ريتا المعشوقة، التي صارت تتهرب منه كلما رأته. وهنا يتسأل الشاعر بمرارة وألم من خلال الاستفهامات المتكررة الممزوجة بالتعجب الشديد، التي تجسّد حالة القلق والإضطرار والتوتر، التي يعيشها درويش بسبب غياب المعشوقة "لماذا تهربين الآن"؟

وهذا الاستفهام المتكرر ثلاث مرات في النص يعمّق معنى الغياب، ويصوّر حالة الفقد، وهنا تصير الحياة بالنسبة للشاعر جدباء بلا مطر وقمح وزهور. وكلها رموز للحياة والخصب والنماء، ويخيم عليها طابع الحزن والسكون والصمت، الذي يرمز للموت فصير كأنّه فأس على حدّ قوله يقتلع كلّ جماليات الحياة أو "براويز نجوم"(12) بلا بريق أو لمعان أو إضاءة، فيسيطر الظلام على المكان والزمان فتنعدم الحياة.

وهنا وفي هذا الجو الحزين المظلم ينادي الشاعر ثانية ريتا؛ كي يرتشف منها قبلة الموت، فينتميان لعالم الأموات في خضم المجزرة، يقول(13):

إنني أرتشفُ القبلةَ
من حدّ السكاكين،
تعالي ننتمي للمجزرة!...

إنّه "العاشق السيء الحظ"(14) كما يقول في إحدى عنوانات قصائده، الذي تمرد قلبه، وضلّ طريقه فلا يعرف أين يدير وجهه(15):

تمرد قلبي عليّ
أنا العاشقُ السيءُ الحظ ّ
نرجسةٌ لي وأخرى عليّ
أمرُّ علي ساحب الحب: ألقى السلام
سريعاً. واكتب فوقَ جناحِ الحمام
رسائلَ مني إليّ
أنا العاشق الشيء الحظ لا أستطيع الذهاب اليك,
ولا أستطيع الرجوع اليّ

إنّه المحب المتيم، الذي تاهت به السبل، وضلّلت قلبه الظروف والأشياء المحيطة، العاشق الذي لم يعد يعرف أبداً معنى الحب أو العشق، فيقول(16):

ومَنْ أنتَ يا سيدي الحب حتى نُطيع نواياك أو نشتهي
أن نكونَ ضحاياكَ؟
إياك أعبدُ حتى أراكَ الملاكَ الأخير على راحتيّ

ويقول درويش في قصيدة أخرى بعنوان "بين حلمي وبين اسمه كأن موتي بطيئاً"(17):

أموت – أحبك
إنّ ثلاثةَ أشياء لا تنتهي
أنتِ، والحبُّ، والموت ُ
أن تقتليني
وأن توقفيني عن الموتِ
هذا هو الحب

وهذا هو الفهم الدرويشي العميق لمعنى الموت الرومانسي، الذي صار صنواً للحب، ومعادلاً للعشوقة، وهذه الأقانيم الثلاثة في قلب درويش لا تنتهي ولا تتوقف ما دام قلبه نابضاً بالدم والحياة، بل ويذهب درويش إلى أبعد من ذلك فيجعل حبّه دائماً حتى بعد موته، حيث يقول في مقطع متكرر في النص(18):

إني أحبك حين أموت
وحين أحبُّكِ
أشعر أنني أموتُ

فالموت هنا كما يقول شاكر النابلسي: "لا يعني العدم والنهاية، إنّه يعني التجدد والبداية، في حين كان بالنسبة للشعراء الآخرين

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

يعني العدم أو منتهى اللذة والسعادة"(19). وهذا الفهم الجديد للموت الذي عبّر عنه درويش يحمل معنى الخلود والديمومة والتجدد، وقد كرّر هذا المعنى في قصيدة أخرى بعنوان "موت آخر وأحبكِ" فهو حياة جديدة وهو الحب ذاته(20):

تكونين حريتي بعد موتٍ جديد
أحبُّ
أُجدِّد موتي

وهنا يصبح الموت موتين: موت للموت، وموت للحياة والتجدد حيث يقول(21):

والآنَ أشهدُ أنَّ حضورك موتٌ
وأنَّ غيابكِ موتان
والأن أمشي على خنجرٍ وأغني
فقد عرف الموت أنّي
أحبك، أنّي
أجدد يوماً مضى
لأحبكِ يوماً
وأمضي ....

لقد شخّص درويش الموت إنساناً حيّاً يحس بإحساسه ويشعر بشعوره، فقد عرف ذلك الموت/ الإنسان أنّ الشاعر يحبّ معشوقته حباً شديداً، وأنّه يموت لأجلها؛ لأنّ موته تجدد وحياة. لقد جعل درويش "الموت صنو التجدد، وطريق الانبعاث من جديد"(22).

وأمّا النمط الثالث والأخير من أنماط الموت عند درويش فهو موت الأبطال والشهداء، وهو النمط الأكثر حضوراً في أعماله الشعرية(23) وقد أسماه عبد السلام المساوي الموت الأسمى(24)، وفيه يحاول الشاعر أن يتعامل مع الموت "لتحويله إلى قوة حركية فعالة في المجتمع، وتوليد قوة حياتية من قوة الموت نفسها"(25). لقد رثى درويش شهداء الوطن رثاء مبكياً حاراً، يفيض بكل معاني الحياة والتجدد والانبعاث، وخلّدهم بقصائد "تكشف عن رؤية فلسفة عميقة لدى الشاعر فرضتها طبيعة تجربته نفسها"(26).

يقول في قصيدة بعنوان: "الموت مجاناً"(27):

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليلَ الخميلةْ
شرفُ الطفولةِ أنّها
خطرٌ على أمن القبيلةْ

لقد استطاع درويش أن يصوّر مأساة شعبه، ويبيّن ما يرتكبه العدو الغاضب على أرض فلسطين من مجازر بشعة يروح ضحيتها عشرات الشهداء من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ، وقد اتخذ الشاعر من تلك المجازر وسيلة تبرز وحشة العدو وقسوته، وأداة تحثّ الفلسطينين على مواصلة الفداء والبطولة، يقول في قصيدة بعنوان: "طوبى لشيء لم يصل"(28):

هذا هو العرسُ الذي لا ينتهي
في ساحةٍ لا تنتهي
في ليلةٍ لا تنتهي
هذا هو العرسُ الفلسطيني
لا يصل الحبيبُ الى الحبيب
إلاّ شهيداً او شريداً

"إنّ الشهادة عرس دموى لا ينتهي، والشهداء يحملون مقابرهم على أكفنهم، ويشترون تذاكر للموت، ثم يسيرون في مهمتهم بخطى ثابتة مزغرة كأنّهم ذاهبون إلى العرس/ إلى الحياة، وإلى الموت الجميل"(29).

ويقول في قصيدة بعنوان: "قتلوك في الوادي"(30):

من يشتري للموت تذكره سوانا
اليومَ .... مَنْ !
نحن اعتصرنا كلّ غيم خرائط الدنيا
وأشعار الحنين إلى الوطن
لا مأوها يروي
ولا أشواقها تكوي
ولا تبني وطن

فالأوطان تبنى بالاستشهاد والبطولة والفداء، والاندفاع نحو الموت، وشراء تذاكره بالأرواح والمهج، وهذا يعني أنّ نظرة درويش للموت "تنبع من أيدلوجية معينة، وهي أنّ استرجاع الوطن والعودة إليه لا يتحققان إلاّ عن طريق الموت والاستشهاد، فعشقه لوطنه جعله يعشق الموت، ويصوّره في ثوب جميل على خلاف ما هو في عرفنا، إنّه يسعى إلى الموت قبل أن يسعى الموت إليه"(31)، إذ يؤكّد ذلك في القصيدة نفسها قائلاً(32):

يا أيُّها الوجه البعيدْ
قتلوك في الوادي
وما قتلوك في قلبي
أريدك أن تعيد
تكوين تلقائيّتي
يا أيُّها الوجه البعيد !

فهو يخاطب الشهيد متألماً، ويطلب منه أن يجعل موته طريقاً لإعادة تكوين ذاته بتلقائية، ووسيلة لبناء الذات الفلسطينية على الأرض الفلسطينة، وأداة فاعلة لبناء الوطن، فموت الشهداء حياة وبناء للأوطان، "إنّ عالم الموت والجراح، وعالم الانبعاث والحياة يتداخلان في خطاب الشاعر تداخلاً كبيراً"(33).

ويقول في رثاء صديقه ماجد أبو شرار في قصيدة بعنوان: "اللقاء الأخير في روما"(34):

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

صباحُ الوردِ يا ماجدْ
صباحُ الوردْ
قم اقرأ سورةَ العائد
وشُدَّ القيدْ
على بلد حملناهُ
كوشمِ اليدْ

إنّها دعوة للشهداء ولأبناء الأمة كلّها للتغلب على الجرح والتوحّد وشدّ النفس؛ من أجل مقاومة العدو وتحقيق الهدف، حيث يقول في القصيدة نفسها(35):

تجمع أيُّها اللحم الفلسطيني في واحدْ
تجمع واجمع الساعدْ
لتكتب سورةَ العائد ...

فالشاعر يدعو للوحدة والاتحاد من أجل بناء الذات، فها هو الشعب الفلسطيني يتوحّد ويتجمّع في جسد الشهيد؛ لأنّ موته "لا يجسّد فقط قيمة معنوية تُذكي روح المقاومة بين الأحياء، وتحفظ وجوده بينهم بما قدّم وبما ضحّى، بل إنّ جسده الذي هوى في أرض المعركة يتحول - في سياق شعري حماسي - إلى عتاد حربي صالح لاستعمال مادي جديد"(36).

ويقول أيضاً في رثائه لصديقه "أحمد الزعتر"(37):

كانَ المخيمُ جسمَ أحمدْ
كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ
كانَ الحجازُ ظلالَ أحمدْ
صار الحصارُ مرور أحمد فوقَ أفئدة الملايين
الآسرةْ
صار الحصارُ هجومَ أحمدْ
والبحرُ طلقته الأخيرة

إنّ الموت على الأرض الفلسطينية صار أمراً مالوفاً ومتكرراً، وصار "حالة معادة وقوافل الشهداء متواصلة متجددة، ينضمّ إليها في كل يوم العشرات من كل الأعمار رجالاً ونساء، أفراداً وجماعات، فثمة طفل ممزق الجسد، وفتى مقطّع الأوصال، وثمة شيخ تناثرت أشلاؤه، وفتاة تغيرت ملامح وجهها"(38)؛ ولذا تعوّده الفلسطينيون، وصاروا يمارسونه طقساً يومياً مع "فناجين القهوة العربية" على حدّ تعبير درويش، حيث يقول: "تمرّ تقارير الموت اليومي، الموت الجماعي، مع فناجين القهوة العربية دون أن تصرف أحداً عن شؤونه الخاصة والعامة، ودون أن تحدث ارتباكاً في وزارة الخارجية أو وزارة الصحة... فقد صار من المألوف، ومن الطبيعي، ومن العادي أن يُقتل الفلسطينيون. ألم يخلقوا لهذه المهنة؟ ولا تخيّم سماء المخيّم المحروقة على ضمائر الفحم، كأنّ المخيّم وعاء مفاهيم لا تجمّع بشري، كأنّ المخيّم مكان مصطنع لإنتاج مسلسل تلفزيوني عن لعبة الموت"(39).

وقد أكّد درويش هذا المعنى غير مرة في خطابه الشعري؛ ليظهر حرقته الشديدة، وألمه العميق لما يحلّ لأبناء شعبه من مآس متلاحقة ومتكررة صباح مساء على مسمع العالم ومرآه، حيث يقول: "تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسلّ من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشدّ العلاقة بين الموت والحركة..."(40).

ويقول أيضاً في قصيدة أخرى بعنوان: "المناديل"(41):

وتعوّدي ما دمت لي
موتي ..... وأحزانً البعاد
ما لي سوى عينيكِ، لا تبكي
على موتٍ مُعاد

وأمام هذه الحالات المتكررة كل يوم، بل كل ساعة على مسرح الأرض الفلسطينية كان لا بدّ من المقاومة والتحدي، وبذل المزيد من الدماء والأرواح من أجل التحرير وطرد العدو، فالموت بالنسبة للشاعر أصبح "معايشة الحياة، لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الموت والشهادة، فالموت الذي يُعني به درويش ليس الموت العادي، ولكنّه الموت الذي يتم بناء على فعل: فعل مواجهة، أو مجابهة، أو مقاومة، والذي تكون نتيجة الموت"(42). يقول في المقطع الأول من قصيدة بعنوان "أزهار الدم" مصوّراً مجزرة كفر قاسم، التي ارتكبها العدو بحق فلاحي القرية وأبنائها البسطاء الطيبين(43):

آه يا خمسينَ لحناً دموياً
كيف صارت بركة الدم نجوماً وشجر؟
الذي مات هو القاتل يا قيثارتي
ومغنيك انتصر!
افتحي الأبواب يا قريتنا
افتحيها للرياح الأربع
ودعي خمسين جرحاً يتوهَّج

فهو يستهلّ نصه بهذا المغنى الدموي، الذي يعزف فيه خمسين لحناً دموياً، ليجسدّ بشاعة الجريمة، ويعبّر عن ألمه وحزنه الشديدين لما حلّ بالقرية الوادعة الوديعة، مستخدماً اسم الفعل المضارع (آه) مرتين، وأساليب الإنشاء الطلبي المتنوعة: كالنداء والاستفهام والأمر والتمني، التي تعكس حرقته، وتكشف عن قلقه وتوتره واضطرابه جرّاء ما يحدث لأبناء أمته وشعبه. لقد تحوّل شهداء القرية إلى أوتار يغني الشاعر على ألحانها، فهم "لم يموتوا ولكنّهم أصبحوا أصواتاً إلهية تعزف للأمل وللمستقبل، لقد انطلقوا ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الأرض المحتلة يمسحون الدموع ويملأون القلوب بالأمل"(44).

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

ويقول في القصيدة نفسها في مقطع بعنوان "عيوب الموتى على الأبواب"(45):

يا كفرَ قاسم ! لن تنام .... وفيك معبرةٌ دليل
ووصيته الدم لا تساوم
ووصيته الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم

فالشاعر يكرر فعل المقاومة في النص؛ لأنّه جوهر الصراع، وأساس التحرير والبناء، وقد "شخّص الدّم وصوّره تصديراً حيّاً فيه حركة وصوت، إذ يطلق صرخة استغاثة مدوية، ويقدّم وصيته للأجيال القادمة، وبذلك يرسم صورة سمعية حركية من خلال صورة الدم البصرية"(46). وهذه الصرخة هي "صوت أرواح الشهداء الفقراء الذين ماتوا في تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سبباً لموتهم... فهذه الأرواح كان لها همسها وغناؤها الباقي الذي لا يذوب أبداً أمام أصوات مليئة بالضجيج والعنف"(47).

ويقول في قصيدة بعنوان: "الأرض" مستحضراً تلك المجزرة، التي ارتكبها العدو في "يوم الأرض" وقد راح ضحيتها خمس فتيات على باب المدرسة الابتدائية(48):

أنا الأرضُ. أيُّها العابرونَ على الأرضِ في صحوها
لن تمرّوا
لن تمرّوا
لن تمرّوا

لعلّ في هذا التكرار الفعلي المسبوق بأداة النصب (لن) التي تفيد معنى النهي والزجر ما يؤكّد حرص درويش على المقاومة والنضال والاستشهاد في سبيل تطهير الأرض وطرد العدو الغاشم، "فالعربي الفلسطيني لا يملك غير دمه غطاء لوطنه، وهذا الدم هو بمثابة غطاء الذهب...، فدمه يولد منه، حيث لا احتمال إلاّ في هذا الدم، ولا انبعاث إلاّ في هذا الدم، ولا تجدد إلاّ في هذا الدم"(49).

وتبرز صورة الموت في أوسع تجلياتها في شعر درويش في "جداريته" الطويلة، التي توقّف عندها عدد من الدارسين(50)، ورصد عبد السلام المساوي معجم الموت في الجدارية فوجده "يتشكّل فيها إفراداً وتركيباً بنسب عالية، وهذا ما يجعلها مكرّسة لتجربة الموت بكاملها؛ فألفاظ الموت وتراكيبه تخترق الفقرات الشعرية من البداية إلى النهاية، ويتنوّع هذا المعجم تبعاً للدلالات التي تراهن عليها الرؤية الشعرية إلى الموت، وهي دلالات تحيل على حقول متنوّعة تكتسب أبعادها من التقاطعات المعرفية والثقافية التي تحبل بها القصيدة"(51).

وقد تميز خطاب الموت في الجدارية "بكونه يتأسس باعتباره احتفاء بالفجيعة والغياب، حيث تتحول المعاناة التي تتخذ صورة الفجيعة إلى حضور جمالي فياض وشفاف"(52). ويجيء الموت فيها مشتبكاً برموز الحياة، فهي تصنع موتاً مختلفاً، وتؤسس لجمالية جديدة في مواجهته، فإذا كان الموت يستطيع إفناء الجسد فإنّ الكتابة تغدو جسداً غير قابل للفناء، وهي قادرة أن توسّع فضاءها لتنفتح على آفاق متباينة(53).

يقول درويش في الجدارية مصوراً الموت(54):

يا موت! يا ظلي الذي
سيقودُني، يا ثالث الاثنين، يا
لونَ التردُّد في الزمرُّد والزبرجدِ،
يا دمَ الطاووس، يا قناصَ قلب
الذئب، يا مرضَ الخيال! اجلسْ
على الكرسي! ضعْ أدواتِ صيدكَ
تحت نافذتي. وعلّقْ فوقَ بابِ البيت
سلسلةَ المفاتيح الثقيلة! لا تحدقْ
يا قوي إلى شرايييني لترصد نقطة
الضعف الأخيرة...

فهو هنا يعتمد على عنصريّ التشخيص والتجسيم في رسم صورة حسية بصرية حركية لونية للموت كما يتجسّد في عقله وفكره وقلبه؛ فالموت ظلّه الذي يلاحقه ويطارده، وهو لون التردد في الزمرد والزبرجد، ودم الطاووس، وهو قناص قلب الذئب، ومرض الخيال، ومثل هذه الصور الشعرية وغيرها في النص تُبرز صورة الموت لدى الشاعر، فالموت هو القوي القادر على إنجاز كل شيء، والشاعر/ الإنسان أمامه الضعيف العاجز المقهور المستسلم(55):

أنت أقوى من جهاز
تنفسي، أقوى من العسل القويّ،
ولست محتاجاً - لتقتلني - إلى مرضي

"ولعل تشخيص الموت عن طريق إنشاء وضعية تحاورية بين الذات التي تستشعر قرب نهايتها وبين الموت الذي يتأهب لإنجاز مهمته أن يمثل بعداً جمالياً في قصيدة الجدارية التي تطمح إلى تعيين الموت ورسم أطيافه وأشباحه عبر تشييد متخيله؛ حيث المحاورة الشعرية أداة جمالية يلوذ بها الشاعر في مواجهة الموت والغياب"(56).

كما يعتمد على اللغة الشعرية اعتماداً مكثّفاً من خلال الانزياح الشعري المتمثل في النداءات المتكررة على الموت بوصفه إنساناً حيّاً يسمع ويرى ويحس ويعقل (يا موت، ويا ظلّي، ويا ثالث اثنين، ويا لون التردد، ويا دم الطاووس... ومن خلال أساليب الإنشاء الطلبي، التي تكشف ضعف الشاعر وعجزه وقلة حيلته أمام المخاطب المنادى/ الموت، (اجلسْ، وضعْ، وعلّق، ولا تحدّق...).

ودرويش بهذا الاستخدام الفني المبدع للمفردات والتراكيب

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

والصور الحسية "يُقْدم على تعيين الموت وتسميته، وهو يختار له من أشياء الحياة وكائناتها علامات واصفة ومميزة بغية نفي المجهولية التي اقترنت به في كل الخطابات الثقافية الأخرى. وبعبارة أخرى فهو يشخّصه كيما يسهّل عليه ضبط ممارساته، وإقناعه بضرورة التمهل ريثما يرمّم أعطاب اللغة التي تسبّب بها وهن الجسد وضعفه"(57).

لعلّنا نلحظ مما سبق أنّ النظرة الدرويشية للموت كما تتجلى في نصوصه السابقة تعبر عن رؤية ذاتية عميقة، "وأنّ حديثه عن الموت ليس حديث الخائف منه، القلق على مستقبلة، بل هو يرى فيه نقطة البدء نحو حياة كريمة حرة، وطريقاً من طرق السعادة التي يحلم بتحقيقها، أو بعبارة أخرى أنّ محمود درويش قد اقترب بحبه للموت من مسلك الرومانتيكيين الذين يرون في الموت نهاية للعذاب وبداية للسعادة ولكنه يختلف عنهم في أنّ تمنيه للموت لا ينمّ عن نزعة تشاؤمية إنهرامية، بل هي نزعة المتفائل الحالم بحياة أفضل في ربوع وطنه"(58).

خلاصة البحث

إنّ رؤية درويش للموت رؤية عميقة، ونظرة بعيدة تشكّل الأشياء حسب انعكاساتها في عقله وقلبه، فيصير الموت بالنسبة له معايشة الحياة؛ لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الشهادة، الذي أصبح فعلاً يومياً ألفه الشعب الفلسطيني وتعوّد عليه.

وتتجلّى الفلسفة الدرويشية في نظرتها لثنائية الموت والحياة في أبعد صورها، إذ من الموت تولد الحياة، ويتحقق النصر والوجود، ويصبح غياب الشهداء موتين: موت للموت وموت للحياة. فهو يمجدّ الموت باعتباره عرساً للشهداء، وسبيلاً لاستعادة الأرض، وطرد العدو، وتحقيق الذات الفلسطينية على أرضها. وإنّ هذا الفهم العميق لهذه الجدلية يصدر عن ذات شاعرة واعية ومدركة لما يحدث حولها من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان، وقد انتصرت على الموت انتصاراً جمالياً بما أبدعته من قصائد فريدة، تعبّر بعمق شديد عن قضايا شعبها وأمتها بلغة شعرية مؤثرة في بنيتها وصورها وتراكيبها ومعانيها وعواطفها وموسيقاها وإيقاعها كذلك.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

الهوامـش

(1) ينظر: المساوي، جماليات الموت في شعر محمود درويش، ط1، ص14-17.
(2) درويش، الأعمال الكاملة، ط3، ص10.
(3) درويش، ص10.
(4) درويش، ص10.
(5) درويش، ص14.
(6) درويش، ص14.
(7) درويش، ص26.
(8) درويش، ص57.
(9) ينظر: المساوي، ص21.
(10) النابلسي، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط1، ص405.
(11) درويش، ص124.
(12) درويش، ص124.
(13) درويش، ص124.
(14) درويش، ص124.
(15) درويش، ص459.
(16) درويش، ص460.
(17) درويش، ص246.
(18) درويش، ص244.
(19) النابلسي، ص407.
(20) درويش، ص254.
(21) درويش، ص256.
(22) النابلسي، ص407.
(23) الياسين، "صورة الشهيد في شعر محمود درويش"، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م6 ع4، ص167-187؛ وينظر: المساوي، ص28.
(24) ينظر: المساوي، ص28.
(25) النابلسي، ص412.
(26) الياسين، ص187.
(27) درويش، ص256.
(28) درويش، ص256.
(29) الياسين، ص 172.
(30) درويش، ص201.
(31) أبو حميدة، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ط1، ص111.
(32) درويش، ص201.
(33) أبو حميدة، ص114.
(34) درويش، ص407.
(35) درويش، ص408.
(36) المساوي، ص37.
(37) درويش، ص39.
(38) الياسين، ص171.
(39) درويش، عابرون في كلام عابر، ص85.
(40) درويش، يوميات الحزن العادي، ص119.
(41) درويش، ص61-62.
(42) النابلسي، ص405.
(43) درويش، ص105.
(44) النقاش، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ط2، ص45.
(45) درويش، ص105.
(46) الياسين، ص184.
(47) النقاش، ص51.
(48) درويش، ص311.
(49) النابلسي، ص407.
(50) ينظر: الشيخ، خليل: "جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها"، مجلة نزوى، ع25؛ والمساوي، ص37؛ والغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى؛ وصالح: "اللغة والتشكيل في جدارية درويش"، مجلة جامعة دمشق، م26 ع 3+4، ص333-368.
(51) المساوي، ص58.
(52) الغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى، ع ص.
(53) ينظر: الشيخ، "جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها"، مجلة نزوى، ع25، ص123.
(54) درويش، ص725.
(55) درويش، ص725.
(56) الغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى، ع ص.
(57) المساوي، ص63.
(58) أبو حميدة، ص111.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

المصادر والمراجع

أبو حميدة، محمد صلاح، 2000م، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ط1، مطبعة المقداد، غزة.

درويش، محمود، 1973م، يوميات الحزن العادي، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

درويش، محمود، 1991م، عابرون في كلام عابر، دار توبقال، الدار البيضاء.

درويش، محمود، 2003م، الأعمال الكاملة، ط3، دار الهدى، بيروت.

الشيخ، خليل، 2001م، جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها، مجلة نزوى، ع25، كانون الثاني.

صالح، عالية، 2010، اللغة والتشكيل في جدارية درويش، مجلة جامعة دمشق، م26 ع 3+4.

الغرافي، مصطفى، خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى.

المساوي، عبد السلام، 2009م، جماليات الموت في شعر محمود درويش، ط1، دار الساقي، بيروت.

النابلسي، شاكر، 1987م، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.

النقاش، رجاء، 1971م، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

Life and Death Dialectic in Mahmoud Darwish's Poems

*Raed Walid Jaradat**

ABSTRACT

This study aims at investigating the duality of life and death in Mahmoud Darwish's poems because it is remarkably a recurrent theme in his literary works. This study shows the most prominent death's patterns and imagery in Darwish's poetic speech such as the death of relatives, the death of friends, the death of beloved ones and lovers, and the death of martyrs and heroes. Moreover, the study clarifies that Darwish's has an insightful vision of death, and he has a futuristic vision that forms things according to their reflections in his mind and heart. Thus, death, for him, means to experience life. This vision is true because there is an act of martyrdom that really exists; this act actually becomes part of the Palestinians daily lives and so they acclimate themselves to it. Therefore, it is death which generates life and achieves victory. So martyrs' passing away represents two deaths: death for death and death for life. Darwish glorifies death because he considers it the wedding for martyrs and a way to restore the land, expel the enemy, and achieve the Palestinian self at its homeland.

Keywords: Life, Death, Mahmoud Darwish.

* Department of Arabic Language and Literature, Faculy of Arts, Tafila Technical University, Tafila, Jordan. Received on 28/12/2012 and Accepted for Publication on 7/4/2013.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد ٤٠، العدد ٣، ٢٠١٣

جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش

رائد وليد جرادات*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند ثنائية الحياة والموت في شعر محمود درويش، بوصفها قضية محورية تتردد في أعمالة الشعرية بصورة لافتة.

وقد تحدثت الدراسة عن أبرز أنماط الموت وصوره في خطاب درويش الشعري: كموت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة، وموت المحبين العاشقين، وموت الشهداء والأبطال. وتبيّن أنّ رؤيته للموت رؤية عميقة، ونظرة بعيدة تشكّل الأشياء حسب انعكاساتها في عقله وقلبه، فيصير الموت بالنسبة له معايشة الحياة؛ لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الشهادة، الذي أصبح فعلاً يومياً ألفه الفلسطينيون وتعوّدوا عليه، فمن الموت تولد الحياة، ويتحقق النصر، ويصبح غياب الشهداء موتين: موت للموت وموت للحياة. فهو يمجدّ الموت باعتباره عرساً للشهداء، وسبيلاً لاستعادة الأرض، وطرد العدو، وتحقيق الذات الفلسطينية على أرضها.

الكلمات الدالة: الحياة، الموت، محمود درويش.

المقدمة

لقد حظي شعر درويش باهتمام عدد كبير من الباحثين والدارسين منذ بداياته وحتى يومنا هذا، إلاّ أنّ هناك مناطق جمالية غائرة في طبقات عميقة فيه تحتاج مزيداً من الكشف والبحث، فشعره منجم غزير، وكنز وفير في شكله ومضمونه؛ الأمر الذي يدفع الباحثين إلى التعمّق والقراءة الجادة .

وتناول درويش في شعره موضوعات شتى لعلّ من أبرزها قضية "الحياة والموت"؛ إذ تكررت في أعماله الشعرية بصورة لافتة، فأثارت اهتمام الدارسين لما قدّمه درويش فيها من رؤى جديدة، وأفكار عميقة تجسّد نظرته لهذه الثنائية الكبرى، التي تتعلق بالوجود الإنساني بالمعنى العام، والمصير الفلسطيني بالمعنى الخاص.

تحاول هذه الدراسة الوقوف عند هذه الجدلية الكبرى وتجليتها في شعره، وبيان فلسفة الشاعر فيها وموقفه من الموت، الذي تتعدد أشكاله وصوره في نصوصه الشعرية: كموت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة، وموت المحبين العاشقين، وموت الشهداء والأبطال وغيرها من تلك الصور.

جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش

جدلية الحياة والموت من أبرز المضامين الشعرية، التي تكررت في شعر درويش، وأثارت اهتمام عدد كبير من الدراسين؛ وذلك لما أحدثه فيها من رؤى جديدة، وأفكار عميقة لهذه الجدلية الكبرى، فالحياة تولد من رحم الموت كما يقول، وأيّ موت هذا الذي يُولّد الحياة، إنّها الفلسفة الدرويشية الخاصة، التي تنظر إلى الأشياء بمنظار رؤيويّ جديد، فرضته طبيعة الحياة، والظروف المحيطة، التي عايشها الشاعر وعاش في خضمّها.

وإنّ القارئ لأعمال درويش الشعرية يلحظ بوضوح أنّ لفظة "الموت" وما يتعلق بها من مفردات قد انتشرت في أشعاره انتشاراً واسعاً، وشغلت حيزاً كبيراً في عنوانات كثير من قصائده ونصوصه. وقد رصد عبد السلام المساوي في كتابه الموسوم بـ "جماليات الموت في شعر محمود درويش" هذه اللفظة واستخدامها عنواناً في بعض قصائد درويش الشعرية، وخلص إلى جملة من الافتراضيات التي تحقق منها وهي[1]:

١- الإيمان العميق بأنّ الإقدام على الموت استشهاداً وفداءً هو الخطوة العملية التي بإمكانها أن تعيد الحق المسلوب.

٢- الانصراف عن التأمل الفلسفي في الموت بكونه مصيراً ميتافيزيقياً؛ وذلك لأنّ اللحظة التاريخية كانت أقوى من الانشغال بالفكر التأملي بقضية الموت.

٣- استخدام الشعر كوسيلة لتثوير الشعب وتحميسهم على بذل النفس من أجل استعادة الأرض.

وقد تجلى الموت عند درويش في ثلاثة أنماط:

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الطفيلة التقنية، الطفيلة، الأردن. تاريخ استلام البحث ٢٠١٢/١٢/٢٨، وتاريخ قبوله ٢٠١٣/٤/٧.

© ٢٠١٣ عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية، جميع الحقوق محفوظة.
جدلية الحياة والموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All rights reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

١- موت الأهل والأقارب والأصدقاء والأحبة.
٢- الموت المحبين العاشقين.
٣- موت الأبطال والشهداء.

فمن أمثلة النمط الأول لدى درويش قصيدته في رثاء أبيه وعنوانها "مرثية"[2]:

لملمتُ جرحكَ يا أبي
برموشِ أشعاري
فبكت عيونُ الناسِ
من حزني... ومن ناري
وغمستُ خبزي في التراب...
وما التمستُ شهامةَ الجارِ!

فهو يتحدث عن موت والده، ويصوّر حالته النفسية بعد رحيله، وما ألمَّ به من حزن شديد، ومصاب جلل، جعله يبكي بكاء شديداً عليه، وقد سخّر موهبته الشعرية في تجسيد ذلك المصاب، وإبراز الحالة الوجدانية، مؤكّداً أنّه لا يملك سوى البكاء والدموع والشعر للتعبير عن هول الفقد، وعظيم الكارثة. وقد جعل الشاعر الطبيعة تشاركه هذا الإحساس العظيم بالموت؛ فإذا التربة تصاب بالصمم والعُري والجفاف، فلا غيم، ولا أمطار، ولا حياة فيها؛ لأنّها سمعت تأوهات الشاعر وآلامه[3]:

فترفرفت لما نذرت لها
جرحاً بكى برموش أشعاري!

وهذه الصورة التشخصية تبرز ألم الشاعر، وتصوّره خير تصوير، فجرح الشاعر يصير إنساناً حيّاً يبكي ويئنّ، وتستجيب التربة لهذا الشعور فتحسّ بإحساسه، فإذا عيونها تترقرق ويفيض دمعها، وتصاب بالمرض والجدب. لقد شرب درويش "أقداح البؤس"[4] بموت والده ولم يجد إلا الرثاء مخرجاً لهذه الحالة الوجدانية الصعبة.

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان: "الموت في الغابة"[5]:

لا شيء يستدعي غناء أسى
فالموتُ أكبر من مزاميري

لقد تعوّد درويش أن يرثي أحبته وأصدقاءه بقصائده، التي تعبّر عن عواطفه وأشجانه، وتصوّر أحاسيسه وانفعالاته كأنّها أغنيات حرّى مبكية، ونفثات مكلوم مشجية، ولكنّ إيقاع الموت أكبر، وأشد تأثراً وإيلاماً في نفسه؛ لأنّه أصبح يتكرر كل يوم في غابة الاستعمار المفترس، الذي يسطو على كل الأشياء فيغيّرها، ويبدّل معالمها؛ فيتحول الأمن إلى خوف، والسّلام إلى حرب، والضياء إلى ظلام، والحياة إلى موت[6]:

جرحٌ صغير... مات صاحبُهُ
فطواه ليلٌ كالأساطير
تاريخه ... أنفاسُ مزرعةٍ
تسطو عليها كفّ شريرِ
كانت، فلا نقرات قُبَّرةٍ
بقيت، ولا صيحاتُ ناطورِ
وغصونُ زيتونٍ مقدسةٌ
ذبلت عليها قطرةُ النور!

ومع هذا ماذا يفعل المكلوم غير البكاء، واستحضار الراحل، والتحسر على غيابه؟ يقول[7]:

أنا أدري أنّ دمعَ العين خذلان ... وملحُ
أنا أدري،
وبكاء اللحن ما زال يلحُّ
لا ترُشّي من مناديلك عطراً
لست أصحو ... لست أصحو
ووعي قلبي ... يبكي

ويقول في قصيدة بعنوان "مطر"[8]:

يا جدي المرحوم! أهلاً بالمطر
يروي ثراك. فلا يزال السنديان
من يومها يدمي الحجر !
.....
يا نوح !
لا ترحل بنا
إنّ المماتَ هنا سلامة
إنا جذورٌ لا تعيش بغير أرض ...
ولتكُن أرضي قيامه !

إنّ درويشاً في هذا النص يستحضر عادة الشعراء القدماء في الوقوف على قبور أحبتهم وأصدقائهم، والبكاء على أصحابها الراحلين المودعين بالثرى كأنّهم أفلاك وأقمار ونجوم، والدعاء لهم بالسقيا والمطر؛ ليبثوا الحياة فيها، وها هو درويش يقف على قبر جدّه، ويدعو له بالمطر، فهو يبث الحياة والخصوبة في المكان؛ كي يبقى وطناً للأحرار، الذين يتجذّرون في أرضه كأشجار السنديان الباسقة القوية، ويدافعون عنه بالأرواح والمهج، ويواجهون الأعاصير والأرياح العابثة ويتحدونها بكل قوة. نعم إنّ الموت على الأرض وفيها كما يقول درويش "سلامة". وهذا الفهم العميق لجمال الموت في الأرض وعلى الأرض هو ما يميز أشعار درويش الأولى. إنّه يدعو دائماً للتجذّر في الأرض والدفاع عنها بكل الأسلحة المتاحة؛ كي نبني بذلك الوطن حتى لو تحوّلت الأرض إلى

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

"قيامة" من شدة المواجهة مع العدو وهول الموقف. إنّه يرفض بشدة الموت خارج الوطن.

ولا يخفى أنّ الشاعر هنا يتناص مع القرآن الكريم وتحديداً قصة نوح – عليه السلام –، ويستوحي قصة الطوفان بطريقة فنية للتعبير عن فكرته هذه، فإذا كان نوح – عليه السلام – كما ورد في النص القرآني قد دعا ممن اتّبعه من المؤمنين إلى الركوب بالسفينة والخروج من الأرض للنجاة من القوم الظالمين؛ فإنّ الشاعر كما ورد في النص الشعري يدعو أبناء أمته بعدم الخروج من المكان والتجذّر فيه ومواجهة القوم الظالمين. فهو "يقلب البعد الديني للقصة القرآنية، دون أن تجسّد هذه الممارسة الفنية تمرّداً على القيمة الروحية المتجلّية في محبّة الأرض إلى درجة العبادة. فهو لا يأخذ من المعطى التراثي تفاصيل حدثه الدرامي، وإنّما يكتفي منه بقيمته الثورية التي تعكس في الظاهر عصياناً، وتدّخر في العمق عبادة لأرض الوطن"[9].

والنمط الثاني من أنماط الموت هو الموت الرومانسي كما أسماه شاكر النابلسي وهو موت المحب من أجل حبيبته[10]. يقول درويش في قصيدته بعنوان "العصافير تموت في الجليل"[11]:

يا ريتا ! وهبناكِ أنا والموت
سرَّ الفرحِ الذابلِ في بابِ الجمالْ
وتَحددنا أنا والموت
في جبهتك الأولى
وفي شباك دارك
وأنا والموت وجهان
لماذا تهربين الآن من وجهي
لماذا تهربين؟

فهو ينادي محبوبته ريتا بأعلى صوته وقد توّحد مع الموت الموت الرومانسي، الذي يتمناه العاشق مع معشوقته عندما يكون اللقاء في الحياة أمراً مستحيلاً، إنّها لغة الشاعر العذري الذي كان يتمنى الموت؛ لكي يجتمع بمحبوبته يوم المحشر. لقد توحّد الشاعر مع الموت، وأصبحا وجهين لعملة واحدة من أجل ريتا المعشوقة، التي صارت تتهرب منه كلما رأته. وهنا يتسأل الشاعر بمرارة وألم من خلال الاستفهامات المتكررة الممزوجة بالتعجب الشديد، التي تجسّد حالة القلق والإضطرار والتوتر، التي يعيشها درويش بسبب غياب المعشوقة "لماذا تهربين الآن"؟

وهذا الاستفهام المتكرر ثلاث مرات في النص يعمّق معنى الغياب، ويصوّر حالة الفقد، وهنا تصير الحياة بالنسبة للشاعر جدباء بلا مطر وقمح وزهور. وكلها رموز للحياة والخصب والنماء، ويخيم عليها طابع الحزن والسكون والصمت، الذي يرمز للموت فصير كأنّه فأس على حدّ قوله يقتلع كلّ جماليات الحياة أو "براويز نجوم"[12] بلا بريق أو لمعان أو إضاءة، فيسيطر الظلام على المكان والزمان فتنعدم الحياة.

وهنا وفي هذا الجو الحزين المظلم ينادي الشاعر ثانية ريتا؛ كي يرتشف منها قبلة الموت، فينتميان لعالم الأموات في خضم المجزرة، يقول[13]:

إنني أرتشفُ القبلةَ
من حدّ السكاكين،
تعالي ننتمي للمجزرة!...

إنّه "العاشق السيء الحظ"[14] كما يقول في إحدى عنوانات قصائده، الذي تمرد قلبه، وضلّ طريقه فلا يعرف أين يدير وجهه[15]:

تمرد قلبي عليّ
أنا العاشقُ السيءُ الحظ ّ
نرجسةٌ لي وأخرى عليّ
أمرُّ علي ساحب الحب: ألقى السلام
سريعاً. واكتب فوقَ جناحِ الحمام
رسائلَ مني إليّ
أنا العاشق الشيء الحظ لا أستطيع الذهاب اليك،
ولا أستطيع الرجوع اليّ

إنّه المحب المتيم، الذي تاهت به السبل، وضلّلت قلبه الظروف والأشياء المحيطة، العاشق الذي لم يعد يعرف أبداً معنى الحب أو العشق، فيقول[16]:

ومَنْ أنتَ يا سيدي الحب حتى نُطيع نواياك أو نشتهي
أن نكونَ ضحاياكَ؟
إياك أعبدُ حتى أراكَ الملاكَ الأخير على راحتيّ

ويقول درويش في قصيدة أخرى بعنوان "بين حلمي وبين اسمه كأن موتي بطيئاً"[17]:

أموت – أحبك
إنّ ثلاثةَ أشياء لا تنتهي
أنتِ، والحبُّ، والموتُ
أن تقتليني
وأن توقفيني عن الموت
هذا هو الحب

وهذا هو الفهم الدرويشي العميق لمعنى الموت الرومانسي، الذي صار صنواً للحب، ومعادلاً للعشوقة، وهذه الأقانيم الثلاثة في قلب درويش لا تنتهي ولا تتوقف ما دام قلبه نابضاً بالدم والحياة، بل ويذهب درويش إلى أبعد من ذلك فيجعل حبّه دائماً

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

حتى بعد موته، حيث يقول في مقطع متكرر في النص[18]:

إني أحبك حين أموت
وحين أحبُّكِ
أشعر أنني أموتُ

فالموت هنا كما يقول شاكر النابلسي: "لا يعني العدم والنهاية، إنّه يعني التجدد والبداية، في حين كان بالنسبة للشعراء الآخرين يعني العدم أو منتهى اللذة والسعادة"[19]. وهذا الفهم الجديد للموت الذي عبّر عنه درويش يحمل معنى الخلود والديمومة والتجدد، وقد كرّر هذا المعنى في قصيدة أخرى بعنوان "موت آخر وأحبكِ" فهو حياة جديدة وهو الحب ذاته[20]:

تكونين حريتي بعد موتٍ جديد
أحبُّ
أُجدِّد موتي

وهنا يصبح الموت موتين: موت للموت، وموت للحياة والتجدد حيث يقول[21]:

والآنَ أشهدُ أنَّ حضوركِ موتٌ
وأنَّ غيابكِ موتان
والأن أمشي على خنجرٍ وأغني
فقد عرف الموت أنّي
أحبك، أنّي
أجدد يوماً مضى
لأحبكِ يوماً
وأمضي ....

لقد شخّص درويش الموت إنساناً حيّاً يحس بإحساسه ويشعر بشعوره، فقد عرف ذلك الموت/ الإنسان أنّ الشاعر يحبّ معشوقته حباً شديداً، وأنّه يموت لأجلها؛ لأنّ موته تجدد وحياة. لقد جعل درويش "الموت صنو التجدد، وطريق الانبعاث من جديد"[22].

وأمّا النمط الثالث والأخير من أنماط الموت عند درويش فهو موت الأبطال والشهداء، وهو النمط الأكثر حضوراً في أعماله الشعرية[23] وقد أسماه عبد السلام المساوي الموت الأسمى[24]، وفيه يحاول الشاعر أن يتعامل مع الموت "لتحويله إلى قوة حركية فعالة في المجتمع، وتوليد قوة حياتية من قوة الموت نفسها"[25]. لقد رثى درويش شهداء الوطن رثاء مبكياً حاراً، يفيض بكل معاني الحياة والتجدد والانبعاث، وخلّدهم بقصائد "تكشف عن رؤية فلسفة عميقة لدى الشاعر فرضتها طبيعة تجربته نفسها"[26].

يقول في قصيدة بعنوان: "الموت مجاناً"[27]:

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليلَ الخميلةْ
شرفُ الطفولةِ أنّها
خطرٌ على أمن القبيلةْ

لقد استطاع درويش أن يصوّر مأساة شعبه، ويبيّن ما يرتكبه العدو الغاضب على أرض فلسطين من مجازر بشعة يروح ضحيتها عشرات الشهداء من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ، وقد اتخذ الشاعر من تلك المجازر وسيلة تبرر وحشة العدو وقسوته، وأداة تحثّ الفلسطينين على مواصلة الفداء والبطولة، يقول في قصيدة بعنوان: "طوبى لشيء لم يصل"[28]:

هذا هو العرسُ الذي لا ينتهي
في ساحةٍ لا تنتهي
في ليلةٍ لا تنتهي
هذا هو العرسُ الفلسطيني
لا يصل الحبيبُ الى الحبيب
إلاّ شهيداً او شريداً

"إنّ الشهادة عرس دموى لا ينتهي، والشهداء يحملون مقابرهم على أكفنهم، ويشترون تذاكر للموت، ثم يسيرون في مهمتهم بخطى ثابتة مزغرة كأنّهم ذاهبون إلى العرس/ إلى الحياة، وإلى الموت الجميل"[29].

ويقول في قصيدة بعنوان: "قتلوك في الوادي"[30]:

من يشتري للموت تذكره سوانا
اليومَ .... مَنْ !
نحن اعتصرنا كلّ غيم خرائط الدنيا
وأشعار الحنين إلى الوطن
لا مأوها يروي
ولا أشواقها تكوي
ولا تبني وطن

فالأوطان تبنى بالاستشهاد والبطولة والفداء، والاندفاع نحو الموت، وشراء تذاكره بالأرواح والمهج، وهذا يعني أنّ نظرة درويش للموت "تنبع من أيدلوجية معينة، وهي أنّ استرجاع الوطن والعودة إليه لا يتحققان إلاّ عن طريق الموت والاستشهاد، فعشقه لوطنه جعله يعشق الموت، ويصوّره في ثوب جميل على خلاف ما هو في عرفنا، إنّه يسعى إلى الموت قبل أن يسعى الموت إليه"[31]، إذ يؤكّد ذلك في القصيدة نفسها قائلاً[32]:

يا أيُّها الوجه البعيدْ
قتلوك في الوادي
وما قتلوك في قلبي
أريدك أن تعيد
تكوين تلقائيّتي

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

يا أيُّها الوجه البعيد !

فهو يخاطب الشهيد متالماً، ويطلب منه أن يجعل موته طريقاً لإعادة تكوين ذاته بتلقائية، ووسيلة لبناء الذات الفلسطينية على الأرض الفلسطينة، وأداة فاعلة لبناء الوطن، فموت الشهداء حياة وبناء للأوطان، "إنّ عالم الموت والجراح، وعالم الانبعاث والحياة يتداخلان في خطاب الشاعر تداخلاً كبيراً"[33].

ويقول في رثاء صديقه ماجد أبو شرار في قصيدة بعنوان: "اللقاء الأخير في روما"[34]:

صباحُ الوردِ يا ماجدْ
صباحُ الوردْ
قم اقرأ سورةَ العائد
وشُدَّ القيدْ
على بلد حملناهُ
كوشمِ اليدْ

إنّها دعوة للشهداء ولأبناء الأمة كلّها للتغلب على الجرح والتوحّد وشدّ النفس؛ من أجل مقاومة العدو وتحقيق الهدف، حيث يقول في القصيدة نفسها[35]:

تجمع أيُّها اللحم الفلسطيني في واحدْ
تجمع واجمع الساعدْ
لتكتب سورةَ العائد ...

فالشاعر يدعو للوحدة والاتحاد من أجل بناء الذات، فها هو الشعب الفلسطيني يتوحّد ويتجمّع في جسد الشهيد؛ لأنّ موته "لا يجسّد فقط قيمة معنوية تُذكي روح المقاومة بين الأحياء، وتحفظ وجوده بينهم بما قدّم وبما ضحّى، بل إنّ جسده الذي هوى في أرض المعركة يتحول – في سياق شعري حماسي – إلى عتاد حربي صالح لاستعمال مادي جديد"[36].

ويقول أيضاً في رثائه لصديقه "أحمد الزعتر"[37]:

كانَ المخيمُ جسمَ أحمدْ
كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ
كانَ الحجازُ ظلالَ أحمدْ
صار الحصارُ مرور أحمد فوقَ أفئدة الملايين
الآسيرةْ
صار الحصارُ هجومَ أحمدْ
والبحرُ طلقته الأخيرة

إنّ الموت على الأرض الفلسطينية صار أمراً مالوفاً ومتكرراً، وصار "حالة معادة وقوافل الشهداء متواصلة متجددة، ينضمّ إليها في كل يوم العشرات من كل الأعمار رجالاً ونساء، أفراداً وجماعات، فثمة طفل ممزق الجسد، وفتى مقطّع الأوصال، وثمة شيخ تناثرت أشلاؤه، وفتاة تغيرت ملامح وجهها"[38]؛ ولذا تعوّده الفلسطينيون، وصاروا يمارسونه طقساً يومياً مع "فناجين القهوة العربية" على حدّ تعبير درويش، حيث يقول: "تمرّ تقارير الموت اليومي، الموت الجماعي، مع فناجين القهوة العربية دون أن تصرف أحداً عن شؤونه الخاصة والعامة، ودون أن تحدث ارتباكاً في وزارة الخارجية أو وزارة الصحة... فقد صار من المألوف، ومن الطبيعي، ومن العادي أن يُقتل الفلسطينيون. ألم يخلقوا لهذه المهنة؟ ولا تخيّم سماء المخيّم المحروقة على ضمائر الفحم، كأنّ المخيّم وعاء مفاهيم لا تجمّع بشري، كأنّ المخيّم مكان مصطنع لإنتاج مسلسل تلفزيوني عن لعبة الموت"[39].

وقد أكّد درويش هذا المعنى غير مرة في خطابه الشعري؛ ليظهر حرقته الشديدة، وألمه العميق لما يحلّ لأبناء شعبه من مآس متلاحقة ومتكررة صباح مساء على مسمع العالم ومرآه، حيث يقول: "تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسلّ من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشدّ العلاقة بين الموت والحركة..."[40].

ويقول أيضاً في قصيدة أخرى بعنوان: "المناديل"[41]:

وتعوّدي ما دمت لي
موتي ..... وأحزانَ البعاد
ما لي سوى عينيكِ، لا تبكي
على موتٍ مُعاد

وأمام هذه الحالات المتكررة كل يوم، بل كل ساعة على مسرح الأرض الفلسطينية كان لا بدّ من المقاومة والتحدي، وبذل المزيد من الدماء والأرواح من أجل التحرير وطرد العدو، فالموت بالنسبة للشاعر أصبح "معايشة الحياة، لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الموت والشهادة، فالموت الذي يُعني به درويش ليس الموت العادي، ولكنّه الموت الذي يتم بناء على فعل: فعل مواجهة، أو مجابهة، أو مقاومة، والذي تكون نتيجة الموت"[42]. يقول في المقطع الأول من قصيدة بعنوان "أزهار الدم" مصوّراً مجزرة كفر قاسم، التي ارتكبها العدو بحق فلاحي القرية وأبنائها البسطاء الطيبين[43]:

آه يا خمسينَ لحناً دموياً
كيف صارت بركة الدم نجوماً وشجر؟
الذي مات هو القاتل يا قيثارتي
ومغنيك انتصر!
افتحي الأبواب يا قريتنا
افتحيها للرياح الأربع
ودعي خمسين جرحاً يتوهَّج

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

فهو يستهلّ نصه بهذا المغنى الدموي، الذي يعزف فيه خمسين لحناً دموياً، ليجسدّ بشاعة الجريمة، ويعبّر عن ألمه وحزنه الشديدين لما حلّ بالقرية الوادعة الوديعة، مستخدماً اسم الفعل المضارع (آه) مرتين، وأساليب الإنشاء الطلبي المتنوعة: كالنداء والاستفهام والأمر والتمني، التي تعكس حرقته، وتكشف عن قلقه وتوتره واضطرابه جرّاء ما يحدث لأبناء أمته وشعبه. لقد تحوّل شهداء القرية إلى أوتار يغني الشاعر على ألحانها، فهم "لم يموتوا ولكنّهم أصبحوا أصواتاً إلهية تعزف للأمل وللمستقبل، لقد انطلقوا ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الأرض المحتلة يمسحون الدموع ويملأون القلوب بالأمل"[44].

ويقول في القصيدة نفسها في مقطع بعنوان "عيوب الموتى على الأبواب"[45]:

يا كفرَ قاسم ! لن تنام .... وفيك معبرةٌ دليل
ووصيته الدم لا تساوم
ووصيته الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم

فالشاعر يكرر فعل المقاومة في النص؛ لأنّه جوهر الصراع، وأساس التحرير والبناء، وقد "شخّص الدّم وصوّره تصديراً حيّاً فيه حركة وصوت، إذ يطلق صرخة استغاثة مدوية، ويقدّم وصيته للأجيال القادمة، وبذلك يرسم صورة سمعية حركية من خلال صورة الدم البصرية"[46]. وهذه الصرخة هي "صوت أرواح الشهداء الفقراء الذين ماتوا في تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سبباً لموتهم... فهذه الأرواح كان لها همسها وغناؤها الباقي الذي لا يذوب أبداً أمام أصوات مليئة بالضجيج والعنف"[47].

ويقول في قصيدة بعنوان: "الأرض" مستحضراً تلك المجزرة، التي ارتكبها العدو في "يوم الأرض" وقد راح ضحيتها خمس فتيات على باب المدرسة الابتدائية[48]:

أنا الأرضُ. أيُّها العابرونَ على الأرضِ في صحوها
لن تمرّوا
لن تمرّوا
لن تمرّوا

لعلّ في هذا التكرار الفعلي المسبوق بأداة النصب (لن) التي تفيد معنى النهي والزجر ما يؤكّد حرص درويش على المقاومة والنضال والاستشهاد في سبيل تطهير الأرض وطرد العدو الغاشم، "فالعربي الفلسطيني لا يملك غير دمه غطاء لوطنه، وهذا الدم هو بمثابة غطاء الذهب...، فدمه يولد منه، حيث لا احتمال إلاّ في هذا الدم، ولا انبعاث إلاّ في هذا الدم، ولا تجدد إلاّ في هذا الدم"[49].

وتبرز صورة الموت في أوسع تجلياتها في شعر درويش في "جداريته" الطويلة، التي توقّف عندها عدد من الدارسين[50]، ورصد عبد السلام المساوي معجم الموت في الجدارية فوجده "يتشكّل فيها إفراداً وتركيباً بنسب عالية، وهذا ما يجعلها مكرّسة لتجربة الموت بكاملها؛ فألفاظ الموت وتراكيبه تخترق الفقرات الشعرية من البداية إلى النهاية، ويتنوّع هذا المعجم تبعاً للدلالات التي تراهن عليها الرؤية الشعرية إلى الموت، وهي دلالات تحيل على حقول متنوّعة تكتسب أبعادها من التقاطعات المعرفية والثقافية التي تحبل بها القصيدة"[51].

وقد تميز خطاب الموت في الجدارية "بكونه يتأسس باعتباره احتفاء بالفجيعة والغياب، حيث تتحول المعاناة التي تتخذ صورة الفجيعة إلى حضور جمالي فياض وشفاف"[52]. ويجيء الموت فيها مشتبكاً برموز الحياة، فهي تصنع موتاً مختلفاً، وتؤسس لجمالية جديدة في مواجهته، فإذا كان الموت يستطيع إفناء الجسد فإنّ الكتابة تغدو جسداً غير قابل للفناء، وهي قادرة أن توسّع فضاءها لتنفتح على آفاق متباينة[53].

يقول درويش في الجدارية مصوراً الموت[54]:

يا موت! يا ظلي الذي
سيقودُني، يا ثالث الاثنين، يا
لونَ التردُّد في الزمرُّد والزبرجدِ،
يا دمَ الطاووس، يا قناصَ قلب
الذئب، يا مرضَ الخيال! اجلسْ
على الكرسي! ضعْ أدواتِ صيدكَ
تحت نافذتي. وعلّقْ فوقَ بابِ البيت
سلسلةَ المفاتيح الثقيلة! لا تحدقْ
يا قوي إلى شراييني لترصد نقطة
الضعف الأخيرة...

فهو هنا يعتمد على عنصريّ التشخيص والتجسيم في رسم صورة حسية بصرية حركية لونية للموت كما يتجسّد في عقله وفكره وقلبه؛ فالموت ظلّه الذي يلاحقه ويطارده، وهو لون التردد في الزمرد والزبرجد، ودم الطاووس، وهو قناص قلب الذئب، ومرض الخيال، ومثل هذه الصور الشعرية وغيرها في النص تُبرز صورة الموت لدى الشاعر، فالموت هو القوي القادر على إنجاز كل شيء، والشاعر/ الإنسان أمامه الضعيف العاجز المقهور المستسلم[55]:

أنت أقوى من جهاز
تنفسي، أقوى من العسل القويّ،

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

ولست محتاجاً – لتقتلني – إلى مرضي

"ولعل تشخيص الموت عن طريق إنشاء وضعية تحاورية بين الذات التي تستشعر قرب نهايتها وبين الموت الذي يتأهب لإنجاز مهمته أن يمثل بعداً جمالياً في قصيدة الجدارية التي تطمح إلى تعيين الموت ورسم أطيافه وأشباحه عبر تشييد متخيله؛ حيث المحاورة الشعرية أداة جمالية يلوذ بها الشاعر في مواجهة الموت والغياب"[56].

كما يعتمد على اللغة الشعرية اعتماداً مكثّفاً من خلال الانزياح الشعري المتمثل في النداءات المتكررة على الموت بوصفه إنساناً حيّاً يسمع ويرى ويحس ويعقل (يا موت، ويا ظلّي، ويا ثالث اثنين، ويا لون التردد، ويا دم الطاووس... ومن خلال أساليب الإنشاء الطلبي، التي تكشف ضعف الشاعر وعجزه وقلة حيلته أمام المخاطب المنادى/ الموت، (اجلسْ، وضعْ، وعلّق، ولا تحدّق...).

ودرويش بهذا الاستخدام الفني المبدع للمفردات والتراكيب والصور الحسية "يُقْدم على تعيين الموت وتسميته، وهو يختار له من أشياء الحياة وكائناتها علامات واصفة ومميزة بغية نفي المجهولية التي اقترنت به في كل الخطابات الثقافية الأخرى. وبعبارة أخرى فهو يشخّصه كيما يسهّل عليه ضبط ممارساته، وإقناعه بضرورة التمهل ريثما يرمّم أعطاب اللغة التي تسبّب بها وهن الجسد وضعفه"[57].

لعلّنا نلحظ مما سبق أنّ النظرة الدرويشية للموت كما تتجلى في نصوصه السابقة تعبر عن رؤية ذاتية عميقة، "وأنّ حديثه عن الموت ليس حديث الخائف منه، القلق على مستقبلة، بل هو يرى فيه نقطة البدء نحو حياة كريمة حرة، وطريقاً من طرق السعادة التي يحلم بتحقيقها، أو بعبارة أخرى أنّ محمود درويش قد اقترب بحبه للموت من مسلك الرومانتيكيين الذين يرون في الموت نهاية للعذاب وبداية للسعادة ولكنه يختلف عنهم في أنّ تمنيه للموت لا ينمّ عن نزعة تشاؤمية إنهرامية، بل هي نزعة المتفائل الحالم بحياة أفضل في ربوع وطنه"[58].

خلاصة البحث

إنّ رؤية درويش للموت رؤية عميقة، ونظرة بعيدة تشكّل الأشياء حسب انعكاساتها في عقله وقلبه، فيصير الموت بالنسبة له معايشة الحياة؛ لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الشهادة، الذي أصبح فعلاً يومياً ألفه الشعب الفلسطيني وتعوّد عليه.

وتتجلّى الفلسفة الدرويشية في نظرتها لثنائية الموت والحياة في أبعد صورها، إذ من الموت تولد الحياة، ويتحقق النصر والوجود، ويصبح غياب الشهداء موتين: موت للموت وموت للحياة. فهو يمجدّ الموت باعتباره عرساً للشهداء، وسبيلاً لاستعادة الأرض، وطرد العدو، وتحقيق الذات الفلسطينية على أرضها. وإنّ هذا الفهم العميق لهذه الجدلية يصدر عن ذات شاعرة واعية ومدركة لما يحدث حولها من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان، وقد انتصرت على الموت انتصاراً جمالياً بما أبدعته من قصائد فريدة، تعبّر بعمق شديد عن قضايا شعبها وأمتها بلغة شعرية مؤثرة في بنيتها وصورها وتراكيبها ومعانيها وعواطفها وموسيقاها وإيقاعها كذلك.

الهوامش

(١) ينظر: المساوي، جماليات الموت في شعر محمود درويش، ط١، ص١٤-١٧.
(٢) درويش، الأعمال الكاملة، ط٣، ص١٠.
(٣) درويش، ص١٠.
(٤) درويش، ص١٠.
(٥) درويش، ص١٤.
(٦) درويش، ص١٤.
(٧) درويش، ص٢٦.
(٨) درويش، ص٥٧.
(٩) ينظر: المساوي، ص٢١.
(١٠) النابلسي، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط١، ص٤٠٥.
(١١) درويش، ص١٢٤.
(١٢) درويش، ص١٢٤.
(١٣) درويش، ص١٢٤.
(١٤) درويش، ص١٢٤.
(١٥) درويش، ص٤٥٩.
(١٦) درويش، ص٤٦٠.
(١٧) درويش، ص٢٤٦.
(١٨) درويش، ص٢٤٤.
(١٩) النابلسي، ص٤٠٧.
(٢٠) درويش، ص٢٥٤.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة

(٢١) درويش، ص٢٥٦.
(٢٢) النابلسي، ص٤٠٧.
(٢٣) الياسين، "صورة الشهيد في شعر محمود درويش"، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م٦ ع٤، ص١٦٧-١٨٧؛ وينظر: المساوي، ص٢٨.
(٢٤) ينظر: المساوي، ص٢٨.
(٢٥) النابلسي، ص٤١٢.
(٢٦) الياسين، ص١٨٧.
(٢٧) درويش، ص٢٥٦.
(٢٨) درويش، ص٢٥٦.
(٢٩) الياسين، ص ١٧٢.
(٣٠) درويش، ص٢٠١.
(٣١) أبو حميدة، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ط١، ص١١١.
(٣٢) درويش، ص٢٠١.
(٣٣) أبو حميدة، ص١١٤.
(٣٤) درويش، ص٤٠٧.
(٣٥) درويش، ص٤٠٨.
(٣٦) المساوي، ص٣٧.
(٣٧) درويش، ص٣٩.
(٣٨) الياسين، ص١٧١.
(٣٩) درويش، عابرون في كلام عابر، ص٨٥.
(٤٠) درويش، يوميات الحزن العادي، ص١١٩.
(٤١) درويش، ص٦١-٦٢.
(٤٢) النابلسي، ص٤٠٥.
(٤٣) درويش، ص١٠٥.
(٤٤) النقاش، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ط٢، ص٤٥.
(٤٥) درويش، ص١٠٥.
(٤٦) الياسين، ص١٨٤.
(٤٧) النقاش، ص٥١.
(٤٨) درويش، ص٣١١.
(٤٩) النابلسي، ص٤٠٧.
(٥٠) ينظر: الشيخ، خليل: "جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها"، مجلة نزوى، ع٢٥؛ والمساوي، ص٣٧؛ والغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى؛ وصالح: "اللغة والتشكيل في جدارية درويش"، مجلة جامعة دمشق، م٢٦ ع ٣+٤، ص٣٣٣-٣٦٨.
(٥١) المساوي، ص٥٨.
(٥٢) الغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى، ع ص.
(٥٣) ينظر: الشيخ، "جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها"، مجلة نزوى، ع٢٥، ص١٢٣.
(٥٤) درويش، ص٧٢٥.
(٥٥) درويش، ص٧٢٥.
(٥٦) الغرافي، "خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى، ع ص.
(٥٧) المساوي، ص٦٣.
(٥٨) أبو حميدة، ص١١١.

المصادر والمراجع

أبو حميدة، محمد صلاح، ٢٠٠٠م، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ط١، مطبعة المقداد، غزة.
درويش، محمود، ١٩٧٣م، يوميات الحزن العادي، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
درويش، محمود، ١٩٩١م، عابرون في كلام عابر، دار توبقال، الدار البيضاء.
درويش، محمود، ٢٠٠٣م، الأعمال الكاملة، ط٣، دار الهدى، بيروت.
الشيخ، خليل، ٢٠٠١م، جدارية محمود درويش بين تحرير الذات ووعي التحرر منها، مجلة نزوى، ع٢٥، كانون الثاني.
صالح، عالية، ٢٠١٠، اللغة والتشكيل في جدارية درويش، مجلة جامعة دمشق، م٢٦ ع ٣+٤.
الغرافي، مصطفى، خطاب الموت في جدارية محمود درويش رثاء استباقي لذات حدقت في الموت طويلاً" مجلة نزوى.
المساوي، عبد السلام، ٢٠٠٩م، جماليات الموت في شعر محمود درويش، ط١، دار الساقي، بيروت.
النابلسي، شاكر، ١٩٨٧م، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.
النقاش، رجاء، ١٩٧١م، محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
راند وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800

النسخة الأصلية للمقالة
ALMANHAL

Life and Death Dialectic in Mahmoud Darwish's Poems

*Raed Walid Jaradat**

ABSTRACT

This study aims at investigating the duality of life and death in Mahmoud Darwish's poems because it is remarkably a recurrent theme in his literary works. This study shows the most prominent death's patterns and imagery in Darwish's poetic speech such as the death of relatives, the death of friends, the death of beloved ones and lovers, and the death of martyrs and heroes. Moreover, the study clarifies that Darwish's has an insightful vision of death, and he has a futuristic vision that forms things according to their reflections in his mind and heart. Thus, death, for him, means to experience life. This vision is true because there is an act of martyrdom that really exists; this act actually becomes part of the Palestinians daily lives and so they acclimate themselves to it. Therefore, it is death which generates life and achieves victory. So martyrs' passing away represents two deaths: death for death and death for life. Darwish glorifies death because he considers it the wedding for martyrs and a way to restore the land, expel the enemy, and achieve the Palestinian self at its homeland.

Keywords: Life, Death, Mahmoud Darwish.

* Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Tafila Technical University, Tafila, Jordan. Received on 28/12/2012 and Accepted for Publication on 7/4/2013.

جدلية الحياة و الموت في شعر محمود درويش
رائد وليد جرادات
Al Manhal Platform Collections (https://platform.almanhal.com) - 09/09/2025 User: @ House of Wisdom
Copyright © University of Jordan : Deanship of Academic Research. All right reserved.
May not be reproduced in any form without permission from the publisher, except fair uses permitted under applicable copyright law.
https://platform.almanhal.com/Details/Article/55800